باب

۞ قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الكبائرِ، فقال: «الشِّركُ بالله، واليأْسُ من رَوْحِ الله، والأَمْنُ من مَكْر الله»[1].

وعن ابن مسعودٍ قال: أكبرُ الكبائر الإشراكُ بالله، والأمنُ من مَكْر الله، والقُنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله» رواه عبد الرزاق[2]. =

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢٠١).

(٢) في «مصنفه» (١٩٧٠١).

= **فيه مسائلُ:**

الأولى: تفسيرُ آية الأعرافِ.

الثانية: تفسيرُ آية الحِجْر.

الثالثة: شِدَّةُ الوَعيدِ فيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ الله.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعيدِ في القُنُوطِ(1).[١٢]

[شرح ١٢] يقول المؤلف رحمه الله تعالى: (باب قول الله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾) أراد المؤلف بهذه الترجمة بيانَ تحريم الأَمْن من مكر الله، وبيانَ تحريم القُنوط من رحمة الله، فالواجب على كل مؤمن أن يسيرَ إلى الله ﷻ بين الخوف والرجاء، كما كان عليه حالُ الرسلُ وحالُ أتباعهم، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: الرسل ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ الرَّغَب: الرجاء، والرَّهَب: الخوف ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]. =

---

(١) ص٣٠٤-٣٠٥.

....

= وقال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧].

فالمقصود أن الأصل في حال المؤمن العيش بين الخوف والرجاء بأن يعمل الصالحاتِ ويدعَ المحرَّمات ويتقربَ بأنواع القُرُبات، وليس مع ذلك قانطاً ولا آمناً، بل يرجو رحمةَ ربه بما وَعَدَ به أهلَ طاعته، ويخاف عقوبته مما يقترفُه العبد من السيئات؛ لأنه خطَّاء.

هكذا ينبغي أن يكون المؤمنُ في جميع أحواله؛ بين الخوف والرجاء، فلا يقنط لسوء أعماله، ولا يأمن لما يظنُّ في نفسه من حُسن العمل، فيغترَّ بذلك، فاحذر أيها المؤمن وكن مُسارِعاً للخيرات ومَزِيد الطاعات مع الحذر من الأَمْن من مَكْر الله تعالى.

وإياك وتلعُّبَ الشيطانِ بك بأن يقول لك: أنت قد بلغتَ الذّرْوة، قد بلغت القِمَّة في العمل الصالح، فلا تخش شيئاً واجزم بأنك ناجٍ وأنك مع السعداء، فيغرُّك هذا الغَرُور حتى تقع في =

....

= العُجْب بعملك، وحتى تقع في شيءٍ من الأخطاء والأغلاط التي يُحمَل عليها الأَمْن، ولكن كن على حذر، وذلك بأن تعمل وتجتهد، ومع هذا تخشى شرَّ نفسك، وتخشى عقوبةَ ربِّك؛ لأنك تعلم أنك مهما فعلتَ ومهما اجتهدتَ، فأنت محلُّ التقصير ومحلُّ الخطأ في سائر الأحوال.

وفي المقابل لا تَقنَطْ لسوء العمل ولا تيأس من رَوْح الله، فيَتغلَّب عليك الشيطان، فيقول: أنت مقصِّر، وأنت فعلتَ كذا وفعلتَ كذا، حتى يخرجَك من الرَّجاء إلى القنوط واليأس، فهذا أيضاً منكر، ولكن كُنْ بين ذلك، لا هذا ولا ذاك، قال عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

قال ﷻ: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فلا يجوز لا هذا ولا هذا، ولكن تمشي وتسير إلى الله بين الخوف والرجاء. =

....

= قال بعض السلف: ينبغي للسائر إلى الله جل وعلا أن يكون الخوف والرجاء له كالجناحين للطائر، إذا مال إلى أحدهما تضرَّر؛ فلا يميل إلى الخوف ولا إلى الرجاء، بل يسير إلى الله جل وعلا خائفاً راجياً، لأنه إذا سار مع الخوف يخشى عليه القنوط، وإذا سار مع الرجاء يُخشى عليه الأمن المُفْضي إلى الغرور، فلا بد أن يكون بينهما.

وقال بعض السلف: ينبغي أن يُغلِّب جانب الخوف في حال الصحة حتى يجتهد في أنواع الخير، ويحذر أشدَّ الحذر من السيئات، فإذا جاء المرض ينبغي له أن يغلِّب جانب الرجاء حتى يحسن ظنَّه بربه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنَّ بالله عز وجلَّ» رواه مسلم[1].

ولكن الأَولى هو المتقدم، بأن يكون دائماً بين الرجاء والخوف ومع ذلك يحسن ظنه بربه ولا يسيء الظن به، ولكن لا يحمله حسنُ =

(١) مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧).

....

= الظن على الأَمن، كما لا يحمله الخوفُ على القُنُوط، بل يبقى أبداً بين الرجاء والخوف، وأن يسألَ الله العافيةَ والسلامةَ وحُسنَ الخِتام.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الكبائر، فقال: «الشِّركُ بالله، واليأْسُ من رَوْح الله، والأَمْنُ من مَكْر الله»(١) هذا الحديث يُروى مرفوعاً عن النبي ﷺ، قال الحافظ ابن كثير: والأقرب أنه موقوفٌ عن ابن عباس. وكذلك حديث ابن مسعود موقوفاً عليه: أكبرُ الكبائرِ الإشراكُ بالله والأَمنُ من مَكْر الله، والقُنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله(٢).

هذه كلها كبائرُ، ودلَّ الكتاب والسنة على أنها كبائرُ، والشرك أكبرها، فالشرك بالله هو أكبرُ الكبائر بإجماع أهل الحق كما يدلُّ عليه قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]. =

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢٠١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٧٠١).

....

= وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة:٧٢]، ما جاء مثلُ هذا الوعيد في غير الشرك؛ فدلَّ ذلك على أنه أكبرُ الكبائر.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظمُ؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَك»(١).

فأعظمُ الذنوب الشركُ بالله عز وجل، وهو أعظم الجرائم، ومن ماتَ عليه فلا مغفرةَ له والجنة عليه حرام، نعوذ بالله.

ثم بعد ذلك فالكبائرُ أنواع وطبقات، ومن أكبرها اليأسُ من رَوْح الله، والقُنُوط من رحمة الله، والقنوط هو أشدُّ اليأس، ومن أكبرها أيضاً قتلُ النفوس بغير الحق، فإنه من أكبر الكبائر، وهو أحدُ السبع المُوبِقات كما قال النبي ﷺ: «اجتَنِبوا السبعَ المُوبِقات» قلنا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «الشركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النفس التي حَرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، =

---

(١) أخرجه البخاري: التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم: الإيمان (٨٦).

....

= والتولِّي يومَ الزَّحْف، وقَذْفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ»[(١)].

ومن الكبائر أيضاً الغِيبةُ والنَّميمة، وشهادةُ الزُّور، واليمين الغَمُوس.

فيجب على المؤمن أن يحذر أشدَّ الحذَرِ من كبائر الذنوب وصغائرها، وأن يكون الحذرُ من الكبائر أشدَّ، مع عدم غفلته عن الصغائر؛ لأنها غير منضبطة، إذ ليس هناك نصٌّ واضح في التفريق بين الكبيرة والصغيرة، وإنما هي أقوال لأهل العلم، فإن كان ضبط الكبيرة من الصغيرة فيه شك فينبغي للعاقل الحازم أن يحذر سيئاتِه كلَّها؛ لئلا يقع في كبيرة يظنها صغيرة، فينبغي له أن يأخذ بالحزم ويحذر الذنوب كلها، ويتباعد عنها، ويرجو من الله التوفيق والسلامة منها.

ومـمّا يُروى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «إياك =

---

(١) أخرجه البخاري: الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم: الإيمان (٨٩).

....

= ومُحَقَّراتِ الذنوبِ، فإنَّ لها من الله طالباً»[1]، وفي لفظ: «فإنهن يجتمعنَ على الرجلِ حتى يُهلِكْنَه» ثم ضرب لهذا مثلاً قال: «كمَثَل قومٍ نزلوا أرضَ فَلَاةٍ فحَضَر صَنيعُ القوم ـ يعني غداءهم وعشاءهم ـ فجعل الرجلُ ينطلقُ فيجيءُ بالعُودِ، والرجلُ يجيءُ بالعُودِ، حتى جَمَعُوا سَوَاداً فأَجَّجُوا ناراً وأَنضَجُوا ما قَذَفُوا فيها»[2]، وهكذا الإنسان قد يتساهل فيأتي بهذه السيئة التي يراها صغيرةً ويأتي بالأخرى والأخرى والأخرى، حتى تجتمع عليه فتكون سبباً لهلاكه، نعوذ بالله.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يرضيه، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: الزهد (٤٢٤٣)، وأحمد (٦/ ٧٠) واللفظ له، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.